النزعة العملية

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

من الطريف والمفيد معاً ألا نزال نوازن بين الأدب العربى والأدب الانجليزى فى شتى النواحى ، فان هذين الأدبين لاختلاف ظروفهما يختلفان كثيراً وقلما يتفقان ؛ والموازنة بين وجوه اختلافهما العديدة ـ ووجوه اتفاقهما إن كانت ـ تلقى ضوءا على مختلف الظواهر فى كليهما ، وتبرز شتى الأسباب والمسبَّبات فى تاريخهما ، وقد قيل : وبضدها تتميز الأشياء

وأعنى بالنزعة العملية فى الأدبين اتصالهما بالحياة اليومية والاجتماعية والسياسية والوطنية ومساهمة أقطابهما فى تلك الشؤون ، والأدبان هنا أيضاً على طرفى نقيض : فالنزعة العملية تسود الأدب الانجليزى من أقدم أيامه ، وهى تزداد باطراد عصراً بعد عصر ، بينما هى تكاد تنعدم فى الأدب العربى ؛ وما كان منها فى صدر تاريخه قد تضاءل بكرّ العصور

فالانجليز بطبيعتهم العملية لم يترددوا فى زج الأدب فى غمار الحياة العملية والاستعانة به فى شؤونها ، وأدباؤهم لم يحجموا عن الأخذ بحظهم من أشغال الدنيا ومخاطراتها ، أما العرب فعلى عظيم منزلة الأدب لديهم وشدة احتفائهم به ، كان أدبهم دائماً بواد والحياة العملية بواد ؛ وكان فناً نظرياً محضاً من توفر عليه انقطع عن غيره وعاش فى عالم من الحفظ والرواية والتاريخ والتصنيف

فكان من أدباء الانجليز من ضربوا بسهم فى الفن والعلم والدين والحرب والكشف الجغرافى وكبار وظائف الدولة ، ولهم مع ذلك مؤلفاتهم الشعرية والنثرية المعبرة عن خوالجهم النفسية ونظراتهم فى شؤون الحياة مستقلة تمام الاستقلال عن وظائفهم فى الحياة العملية أو متأثرة بها ، ومن أولئك سبنسر وبيكون ورالى وبنيان وسدنى سميث ودزرائيلى

ومنهم من شاركوا فى التقلبات السياسية فكانوا دائماً فى صف الحرية وفى جانب الشعب ، ولم يستظل منهم إلا القليل بلواء الملكية ابتغاء السلامة والغنيمة . وممن ضربوا بسهم فى هذا الباب توماس مور مؤلف « اليوتوبيا » الذى قطعت اليزابث يده لدفاعه عن حرية الشعب الدينية ؛ ويقال إنه بعد قطع يده رفعها هاتفاً بحياة الملكة لأنه كان يحب ملكته الباسلة ، ولكنه كان أكثر حباً للحرية والشعب . ومنهم ملتون الذى أيد الجمهورية فى ظل كرومويل وعمى بصره فى الدفاع عنها أمام أنصار الملكية

ومنهم من اضطلعوا بعبء الاصلاح الأجتماعى الأخلاق عقب الفساد الذى تركته الملكية العائدة من فرنسا بعد موت كرومويل ، وإديسون ، وستيل بطلا هذا الأصلاح الناجح الفريد فى بابه . ومنهم من كرس أعماله لأصلاح حال العمال عقب التطور الصناعى وزعيمهم دكنز ، أو لأصلاح القانون الجنائى ومعاملة المسجونين تمشياً مع عصر النور والحرية ، ومن أولئك جالزورذى . ومن الأدباء الفكتوريين من صرف همه الى ترقية الجمهور والذوق العام بالمحاضرة عن الفن والأدب ، وكبير هؤلاء رسكن . وزادت هذه النزعة الأجتماعية الأصلاحية بتشعب نواحى الحياة حتى طمت فى عصرنا الحاضر

بل كان من أولئك الفكتوريين جماعة خاضوا ميدان الصناعة والتجارة ، فأنشأوا شركة لصنع الأثاث ، وكانوا يرسمون تطريز الأثاث بأنفسهم ، إذ ساءتهم الطرازات الشائعة فى عهدهم ؛ وأنشأ أحدهم وهو الشاعر المصور وليم موريس مطبعة ومعملاً للحبر لكى يطبع كتبه على النمط الذى يختاره وبالحبر الذى يفضله

بل كان من أدباء الأنجليز من عاف الاجتماع الانسانى قاطبة ونقم على أنظمة الملكية والكنيسة ، وحاول إنشاء مجتمع جديد تسود فيه البساطة والمساواة والأخاء ، ومن هؤلاء شعراء عهد الثورة الفرنسية ؛ فالكتاب الفرنسيون الذين مهدوا لتلك الثورة

و « على عبد اللطيف » فى محاكمتهم سنة ٢٤ ، روح الشاعرية ممزوجة بالوفاء والشهامة . ومن واجب صحفنا وجماعاتنا الأدبية أن تبحث بما أوتيت من وسائل الصحافة عن تلك الكنوز

ليقم الأدب وجماعاته وصحفه بهذا الواجب ، وليس العيب أن يكشف الزمان عن نقص ولا أن نعترف بالنقص ، ولكن العيب أن نقعد عن تلافيه

ولنقل من اليوم : الوجه البحرى ، والوجه القبلى ، والوجه السودانى . وليس عند الله جهد ضائع ، ولكن فى الدنيا كل مضيع

محمد محمود جبريل

أمثال روسو وڤولتير اكتفوا بالعمل النظرى وتركوا التنفيذ لغيرهم ، أما معاصروهم ومن جاء بعدهم من الأدباء الانجليز فحاول كثيرون منهم تنفيذ العمل بأنفسهم . وقد انتقل شيلى إلى إرلندة ثم إلى أوربا لانشاء مدينته الفاضلة ، وإن يكن قد منى بالفشل فى الحالتين ؛ وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لمناداتها بمبادئها المعروفة حتى نقم على دولته إعلانها الحرب على فرنسا الثائرة ، وكاد ينتظم فى أحد أحزاب الثورة ، ويركب تيارها الخطر

أولئك بعض رجال العمل من أعلام الأدب الانجليزى المساهمين فى الحياة الاجتماعية بفكرهم ومجهودهم ، وما نحالنا واجدين مماثليهم بين أعلام أدبنا : فقد كان من يتوفر على الأدب من أبناء العربية ينصرف كما تقدم عما عدا الأدب ، ويقصر أدبه على التعبير عن خوالجه الفردية وذكر مآربه وحبه وشرابه وغضبه ورضاه ونعيمه وشقائه ، ويكاد لتوفره على الأدب لايجد قوت يومه إن لم يكن له مورد سهل ، ويضطر إلى التقرب إلى مَوْلىً يمتدحه ويفوز بأعطيته ؛ وقد كان هذا من دواعى استطالة هذه الظاهرة فى الأدب العربى : ظاهرة المدح التى سرعان ما تلاشت من الأدب الأنجليزى

والقليلون من أعلام الأدب العربى الذين شاركوا فى الحياة العملية إنما صنعوا ذلك جرياً وراء مطامعهم الشخصية لادفاعا عن مصالح أقوامهم ؛ ولذا كان أقصى همهم أن يستوزروا للحكام ، ولم يدر بخلدهم مناقشة سياسة أولئك الحكام ، وإنما ظلوا أبواقاً لهم وكتبة مجيدين ؛ ومن ثم كان ما يتصل بالسياسة من ذخائر الأدب العربى هو الرسائل الديوانية التى دبجها أولئك المنشئون على لسان أمرائهم

والمجيدون من أعلام الأدب العربى الذين ساهموا فى حياة العمل بمناهضة السلطة القائمة كقطرى بن الفجاءة مثلاً قلائل ، وكان جلهم فى صدر الاسلام ، ومن لم يفعل ذلك منهم طلباً لغاية شخصية فعله لعقيدته الدينية حين كانت العقائد الدينية مضطرمة فى الصدور

لقد كان الشعر والخطابة فى الجاهلية أداتين من أدوات الحياة العملية والسياسية فى ذلك المجتمع البدوى ، فلما جاء الاسلام كان فى أصوله شوريا يخول الرعية مشاورة راعيها ، ولكن دولته قامت على بقايا الملكيات المستبدة القديمة ، فقامت الخلافة العربية على غرار تلك الملكيات التى تجمع الأمر كله بيدها ، ولم يعد الخليفة يشاور إذا هو شاور رعياً لحق الرعية عليه بل التماساً للرأى إن أعوزه ، ولا هو كان ملزماً باتباع مشورة غيره ؛ وصار من المسلم به أن الحكم للأمير لادخل للرعية فيه . وبدهى أن الأدب الذى ينمو فى مثل هذه الظروف يظل مكفوفاً عن شؤون السياسة كما كانت بقية الرعية مكفوفة ، فهذا سبب انعزال الأدب العربى عن السياسة

فالأدباء ممثلو أممهم : ففى انجلترا حيث كان الدستور والحياة النيابية هما العقيدة التى يدين بهما الشعب شارك الأدباء كما شارك غيرهم من أفراد الشعب فى الحياة السياسية وتوطيد أركان الحرية ، وفى الأقطار العربية حيث كانت الملكية المطلقة هى القاعدة أحجم الأدباء عن غمار السياسة كما كان بقية الشعب محجماً

ولقد خفف من وطأة الحكومة المطلقة على الأدب أن أكثر الخلفاء والأمراء كانوا أدباء أو عشاقاً للأدب ، وكانوا جميعاً يقربون رجال الأدب ويغدقون عليهم ؛ على أن هذه الحالة كانت لها مساوئها بجانب مزاياها : إذ زخر أدبنا دون غيره من الآداب العالية بأشعار المديح والتهنئة والاستجداء ، وشتان بين أدب ينمو فى ظلال الحرية والاستقلال ، وآخر بين قيود الرعاية والحماية والمنحة

كان الدستور محور السياسة فى انجلترا ، وكان الدين محورها فى الأقطار العربية ، فعليه انقسمت الأمة أحزاباً فى أول الأمر ، ومنه انبعثت الفتن والثورات وقامت الأسر الحاكمة وتقسمت الأمبراطورية العربية دولاً ودويلات ، وبحافز منه جاهد المسلمون الروم ثم الفرنجة . كان الدين فى كل هذه الأطوار مبعث النشاط السياسى وزناد الروح الوطنية والقومية ، ولا ترى الشعر العربى يحفل بالحماسة وروح القومية إلا فى عصور الجهاد تلك

فالحياة الديمقراطية فى انجلترا كانت العامل الأول فى اتسام الأدب الانجليزى بالنزعة العملية ومساهمته فى الحركات السياسية والاجتماعية ، واختراع الطباعة كان عاملاً آخر ساعد اتصال الأدباء بالحياة الاجتماعية واعتمادهم على جمهور القراء بدل الاعتماد على منح الأمراء ، ونتج من توثق هذا الاتصال نشوء الصحف الدورية فكانت عاملاً جديداً فى هذا الميدان أعقبه تعميم التعليم

فعاملا امتلاء الأدب الانجليزى بالنزعة العملية هما الحياة الديمقراطية أولاً وانتشار المطبوعات ثانياً ، وقد كان كلا العاملين يعوزان الأدب العربى ، ومن ثم يزخر الأدب الانجليزى بالشؤون الاجتماعية والسياسية والوطنية بينما يقتصر الأدب العربى على وصف المشاعر الانسانية العامة وتصوير حالات النفس وأطوار الفرد ؟

فكرى أبو السعود